المجلد : 06/ العدد : 01 / الشهر: يناير/السنة: 2019 Issn: 2335- 1470

محمد أركون وماهية التراث الإسلامي،
مقاربة فلسفية.

محمد كرد*

تاريخ الارسال:2018/12/28- تاريخ القبول:2019/01/04 تاريخ النشر:2019/01/12

الملخص:

قام محمد أركون بتحليل مفهوم الأرثوذكسية في الإسلام وكيفية نشوئها وتشكلها، وبين كيف أنها ما تزال تقف كحاجز أمام كل تجديد في المجال العربي الإسلامي، إنها تشكل حجابا يحول دون رؤية الأمور كما جرت عليه بالفعل، هذا ما دفع بمحمد أركون إلى الدعوة إلى ممارسة عمل تفكيكي استكشافي داخلي للتراث العربي الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: أركون؛ الحوار؛ الحداثة؛ فلسفة

Abstract:

Mohammed Arkoun is one of foremost scholars in the Muslim World. His efforts to liberate Islamic history from dogmatic constructs have led him to a radical interpretation of traditional history. He is looking for a new approach to Islamic thought. Arkoun has opposed dogmatism and Mythical – orthodoxy attitude in Islam by using archaeology and deconstruction

Key words: Philosophy; Arkoun; Dialogue; Modernism

* - أستاذ محاضر (أ)، جامعة معسكر، الاختصاص: فلسفة، البريد الإلكتروني: mohammed.kerd@univ-mascara.dz

المجلد : 06/ العدد : 01 / الشهر: يناير/السنة: 2019 Issn: 2335- 1470

مقدمة

لقد تحددت لحظة ميلاد الفكر الفلسفي عبر تاريخه من خلال ممارسة الفعل الفلسفي خارج الإطار الأكاديمي المنظم، إذ منذ اللحظة السقراطية، ونحن نشهد تذكية للفعل الفلسفي من خلال الحوار، وقد كان أفلاطون يتبنى الطريقة الحوارية كسبيل لترسيخ بنية نسقه الفلسفي منهجا وموضوعا، ولذلك توجهت معهم الفلسفة الى الانفتاح على المساءلة الأخلاقية والسياسية والتربوية والاجتماعية.

من هنا ارتبط تاريخ الفلسفة بممارسة الفعل الفلسفي من خلال التجربة الحوارية، ولكن هذا الحوار قد تجسد في مستويات مختلفة، فقد يكون تجربة الفيلسوف الذاتية التي يتفاعل بها مع مجريات الأحداث، وبالفعل تشهد الحداثة الغربية تجربة من هذا النوع، فيا ترى ما الذي حرك نوازع سبينوزا وكانط وهيغل وحتى ماكس فيبر وغيرهم، إلى الاشتغال على قضايا المجتمع والسياسة والأخلاق، سوى رغبتهم العميقة في عقد أفق ممكن لممارسة النظر الفلسفي كتجربة حوارية تحقق مبتغياتها في توجيه هذه المحددات السابقة.

ليس على الفلسفة اليوم تزويدنا بالإجابات التجريدية، بل عليها أن تجعل منا أكثر وعيا بما يواجهنا من مشكلات مصيرية، ترتبط أساسا بمسائل ذات صلة بوجودنا، فنحن بأمس الحاجة اليوم إلى إدراك وبصورة أفضل وبوضوح : أين نقف اليوم؟ وفي أي اتجاه نسير؟ وفي أي الاتجاهات الممكنة تميل صيرورتنا التاريخية الراهنة؟ وماذا يمكننا أن نفعل لنؤثر في هذه الاتجاهات التأثير الايجابي المناسب كي لا نقع على هامش التاريخ ، أو نكون خارجه كعناصر لا فعالة نقوم بالتالي على إتباع غيرنا؟

ما يزال الفكر الإسلامي الحالي يقاوم تعاليم وانجازات الحداثة باسم الدين الحق الذي يرفض أن تطبق عليه المراجعة التاريخية أو الدراسة النقدية، هذا على خلاف ما حدث ويحدث اليوم في أوروبا، إن العقل الأوروبي راح يتجه أكثر فأكثر نحو اقتناص الاستقلالية الفلسفية والابتعاد عن الدوغمائية المطلقة للعقل اللاهوتي.

يقوم الفكر الديني على مفهوم الدين الحق الذي يقدم للناس الحقيقة المطلقة الثابتة، الأزلية، وفي مقابل ذلك تقوم الحداثة وتلح على تاريخية الحقيقة، وهي بذلك تؤكد على نهاية اليقينيان وتعدد أنظمة الحقيقة، وفي تاريخنا الإسلامي، يمكن الحديث عن نظام معتزلي، سني، شيعي، صوفي، علماني .. للحقيقة، ومن هنا يدعونا محمد أركون إلى الانفتاح على الحوار وفتح المجال أمام المساءلة الفلسفية الهيرمينوطيقية من أجل المقارنة بين أنظمة الحقيقة التي هيمنت على الفكر الإسلامي عبر تاريخه وبإخضاع كل نظام لمنهجية الحفر الأركيولوجي والنقد والتفكيك الفلسفي العميق من أجل الكشف عن البنيات المتسترة التي انبنت عليها الحقائق السطحية الظاهرة.

وبالتالي أصبحت الدعوة إلى الانفتاح على تراثنا تتبطن كل تلك الهواجس التي تسكن المفكر الما-بعد-حداثي وعيا منه بأن الفلسفة تبدأ حينما يكون هناك ثمة حوار يعقده المفكر مع ماضيه وتاريخه بدون تحديد وجهة معينة لهذا الحوار

المجلد : 06/ العدد : 01 / الشهر: يناير/السنة: 2019 Issn: 2335- 1470

فكيف يمكن للفكر العربي المعاصر إن يحضر كتجربة حوارية (بينذاتية) في أفق المتغيرات الحضارية والثقافية والدينية التي يشهدها العالم اليوم؟ أو كيف يمكن له أن يعقد حوارا مثمرا مع التاريخ العربي الإسلامي؟

محمد أركون ومفهوم التراث

يؤكد محمد أركون في بداية تحليله لسؤال ماهية التراث على ضرورة مقابلة مفهوم التراث بمفهوم الإسلام ودراسة وضع التراث والتراثات في المجال الإسلامي ليتم بعدها بلورة مفهوم للتراث الإسلامي الكلي.

بدأت المناقشات الخاصة بمفهوم التراث، في نظر محمد أركون، بظهور القرآن، حيث قدم الخطاب القرآني نفسه في صورة "حداثة" تعمل على تجاوز ورفض العقائد والعادات التقليدية السابقة على ظهور القرآن، ومن هنا سيمثل التراث العربي السابق على الإسلام كل ما هو مرادف للجهل والفوضى والضلال والوثنية والقمع ..، في حين سيمثل التراث المشكل بعد ظهور الإسلام الحقيقة الأبدية المطلقة.

ومن هنا يتساءل محمد أركون عن الطريقة التي سيتم من خلالها تناول مفهوم التراث، فهل سيتم ذلك بمطابقة التراث بالإسلام واعتبار الإسلام هو التعبير الوحيد عن التراث أم أنه ينبغي إعادة تحديد الإسلام من حيث هو عملية أو سيرورة اجتماعية وتاريخية من جملة عمليات وسيرورات أخرى؟[1]

يرى محمد أركون أن المقاربة الأولى هي مقاربة تيولوجية، وتمثل اليوم نفس الرؤية التي يتبناها الحركات المدعوة إسلامية والتي تعتقد في أن الإسلام متضمن كليا في القرآن بالصورة التي وضحه عليها الحديث النبوي الشريف، إذن سيكون لمفهوم التراث ومفهوم الإسلام معنى واحد، "إن مجمل العقائد والممارسات والمؤسسات والمعايير الأخلاقية والقانونية والنصوص الناتجة المتعارف بها من قبل الأمة بصفتها التراث الكبر يوضح ويمثل الإسلام الذي أراده الله وحده، إن التراث المتعالي الأكبر إذن ليس إلا تجسيدا لدين الحق في التاريخ، إنه قوة لتقديس الزمكان وتنزيه هذا الزمكان الذي تتجلى فيه حياة الأمة".[2]

أما المقاربة الثانية فتقوم على ترك مفهومي التراث والإسلام مفتوحين باعتبار أنهما خاضعان للسيرورة التاريخية، ومن هنا الفكرة القائلة أن الإسلام مفهوم غير مكتمل إذ ينبغي إعادة بنائه وتحديده وتعريفه داخل كل سياق اجتماعي ثقافي ضمن حقبة تاريخية معينة على أن نلتزم بالاعتقاد بوجود مبادئ ثابتة لا تتغير يحصرها محمد أركون في:

-النص القرآني

-مجموعة نصوص الحديث والتشريع العديدة والمختلفة

[1]- محمد أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية، ترجمة هاشام صالح، مركز الانماء القومي، بيروت والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 1996، ص :19

[2]- المرجع نفسه، ص : 20

المجلد : 06/ العدد : 01 / الشهر: يناير/السنة: 2019 Issn: 2335- 1470

-الفرائض القانونية الخمس والشعائر اللازمة لتأديتها

-الدينامو الروحي المشترك لدى كل المؤمنين والذي يشكل الخاصية المميزة للتراث

تطلب تثبيت هذه العناصر وقتا طويلا، ولتوضيح هذا المعنى قدم محمد أركون بعض النماذج لمفردات لغوية تمت إعادة صياغتها من جديد من داخل المنظور الإسلامي وهذا على خلاف ما كانت تدل عليه في الاستخدام اللغوي العربي السابق على الإسلام.

النموذج الأول الذي قدمه محمد أركون خاص بمفهوم ((سنة))، فكلمة سنة مستخدمة في القرآن بمعنى طريقة الله المعتادة في التصرف تجاه الشعوب التي بقيت مصرة على ضلالها، وهذا في مقابل المعنى العام الذي كان سائدا قبل ظهور القرآن والذي كان يدل على الأعراف المتبعة من قبل جماعة بشرة معينة.

من هنا نفهم هذا التقابل بينما هو سابق على الإسلام وما هو لاحق، تقابل يجعل من اللاحق مختلفا ومنفصلا عما هو سابق ورافضا له.

وفي حدود القرن 80 للهجرة ربط الخليفة عمر بن عبد العزيز مفهوم سنة بالنبي صلى الله عليه وسلم ((سنة النبي))، بيتم اجتياز خطوة أخرى مع الشافعي الذي فرض السنة بكونها مجموعة الأحاديث النبوية الصحيحة واعتبارها المصدر الثاني للشريعة بعد القرآن.

ومن هنا اعتبرت الأحاديث النبوية الشريفة مهمة وضرورية وتبعا لذلك وضعت في مجموعات نصية مسماة ((صحاح)) وهي صحيحا البخاري ومسلم عند السنيين وصحيحا الكليني وابن بابويه عند الشيعيين.

ترتب عن هذا التشكيل ثلاث نتائج وهي:

-انقسام التراث إلى خطين: الخط السني والخط الشيعي

-عدم القبول بالتراثات المحلية المعتبرة غير غسلامية على المستوى النظري على القل وذلك من قبل علم اصول الفقه

-ضعف تيولوجيا التراث وانقطاعيته

تبعا لهذا التحديد قدم محمد اركون المستوى الثاني لفهم التراث أي التراث في مقابل التراثات في المجال الإسلامي.

التراث والتراثات في المجال الإسلامي:

إذا كان الإسلام واحد فإن التراث سيكون واحدا، هذا التصور النظري لا يصدق واقعيا في نظر محمد أركون، فالواقع التاريخي يناقض هذه الفكرة، فبعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، ظهرت ثلاث اتجاهات متصارعة ورافضة لبعضها البعض ومؤمنة بمساراتها ومسلماتها وهذه الاتجاهات

المجلد : 06/ العدد : 01 / الشهر: يناير/السنة: 2019 Issn: 2335- 1470

الثلاث هي الأرثوذكسية السنية والشيعية والخارجية، وهذه الاتجاهات الثلاث هي بدورها تفرعت إلى أرثوذكسيات متباعدة قليلا أو كثيرا عن بعضها البعض3.

إن أهم ما يميز هذه الارثوذكسيات هو رفضها التام للمذاهب والحركات المختلفة عنها وهي تنفي نفيا تاما مشاركتها لها في التراث الحقيقي الصحيح.

علة هذا الاختلاف، كما تصوره محمد أركون، يعود إلى اعتقاد هذه الأرثوذكسيات في بعض الأفكار واعتبارها بديهيات لا مجال للتشكيك فيها وهي:

-أن الانقسام والاختلاف أمر لا مفر منه

-أن الحقيقة واحدة

-أن صحابة النبي يمثلون الجيل الأول من امة روحية ولن يكون المرء معاصرا ضمن هذه الشروط فهذا يعني:

-وجود حقل معنوي سيمانتي منسجم ومتماثل ثابت لا يتغير يسبح فيه ويتحرك فيه كل الناقلين للأمانة الأصلية

-التأكيد على أحادية المعنى للنصوص والموضحة بشكل مطابق للتفاسير التي وصلتنا عبر التراث

-عدم تأثير البيئات أو السياقات التاريخية والاجتماعية المتغيرة على معان هذه النصوص

بعد هذا العرض لأسباب هذا الاختلاف والانقسام يقوم محمد أركون بإجراء مقارنة بين أهم أرثوذكسيتين في الإسلام، الأرثوذكسية السنية والشيعية، ليؤكد تبعا لهذه المقارنة إدعاء كل واحدة من الأرثوذكسيتين على أحقيتها في تمثيل الإسلام الحق.

وتبعا لذلك سيبقى التراث بدون مفهوم مجرد وسيلة في يد طائفة أو حركة أو في يد الدولة الوطنية تبحث فيه عما يسبغ عليها الشرعية، يقول محمد أركون ما نصه: "من المهم أن نعرف ان الإسلام الذي تنسب الحركات الإسلامية نفسها إليه هو إسلام التراث المفتت والسكولاستيكي والجامد والتكراري أكثر مما هو إسلام التراث الحيوي والمنفتح وذو القدرة الكبيرة على التمثل والتفاعل والدمج.. أقصد الإسلام الذي يعود إلى فترة العصر الذهبي للدولة الخليفية"4.

مفهوم التراث الإسلامي الكلي:

يؤكد محمد أركون على ضرورة إعتماد فعل التفكير والتأمل (التفلسف) في التراث الإسلامي، بحيث يكون فعل التفكير دالا على القدرة على اختراق المحرمات والممنوعات التي كانت سائدة سواء بالمس أو اليوم، ويكون دالا أيضا علة القدرة على انتهاك الرقابة الاجتماعية التي تريد أن تبقى في دائرة المستحيل التفكير فيه.

إن فعل التفكير إنما يتطلب اعتماد أساليب وطرق ومناج العلوم الإنسانية والاجتماعية المعاصرة وذلك بغية التحرر من دائرة التراث التكراري أو التراث الذي يعيد إنتاج نفسه باستمرار وللتحرر أيضا

[3]-المرجع نفسه، ص: 25

[4]- المرجع نفسه، ص: 29

المجلد : 06/ العدد : 01 / الشهر: يناير/السنة: 2019 Issn: 2335- 1470

من دائرة التراثات الإكراهية للوصول إلى تأسيس تراث قادر على الحفاظ على الخصوبة5، يقول محمد أركون ما نصه: "ينقل التراث لنا أكثر من مجرد الأفكار القابلة للتشكل المنطقي، إنه يجسد حياة كاملة تشمل الفكر العواطف والعقائد و المطمح والممارسات والأعمال.. ويمكن للطاقة الفردية والجماعية أن تمتح من معينه دون أن تستنفذه ولذا فإنه يتضمن التواصل الروحي للنفوس التي تحس وتفكر وتريد في ظل وحدة المثال الوطني أو الديني نفسه".6

محمد أركون والنزعة الإنسانية في التراث العربي الإسلامي

لا يمكن أن نفهم أسباب الصراع بين المسلمين والعرب مه جهة والغرب من جهة أخرى ما لم نقم بالرجوع إلى الماضي، ماضي الحضارة العربية الإسلامية وماضي الثقافة الغربية، وذلك بغية الكشف عن الجذور العميقة التي تقف وراء هذا الصراع المتواصل.

لقد قامت الفلسفة العربية اليوم ومن خلال أعمال الكثير من المفكرين العرب كمحمد عابد الجابري ومحمد أركون .. بالتنقيب عن هذه الجذور، فالبحث في قضايا الحاضر الراهن إنما تكون من خلال ربطها بجذور التراث البعيدة.

إن رفض الآخر المختلف من حيث القومية أو الدين قد يكون اليوم من أغلب السمات التي تميز وضع مجتمعاتنا العربية الإسلامية وإن كانت هذه الصفة غير موجودة اليوم في المجتمعات المتقدمة حضاريا والتي تسودها النزعة الإنسانية (دول الاتحاد الأوروبي).

بالرجوع إلى كتابات محمد أركون في هذه المسألة وبالأخص في كتابه: ((نحو تاريخ مقارن للأديان) نجد محاولة من المفكر لتسليط الضوء على التراث العربي الإسلامي بمتابعة مساره بداية بما يسمى بالعصر الذهبي أو لنقل العصر الكلاسيكي من زمن الحضارة الإسلامية وصولا إلى اللحظة الراهنة وذلك للكشف عن العلل الأولى التي تظل مخفية ومتسترة وأدت بالتالي إلى هذا التحول من ثقافة تقبل بالآخر المختلف إلى ثقافة ترفض كل تميز واختلاف سواء كان ذلك على المستوى الديني أو العرقي أو الحضاري.7

إن الفكرة الأساسية التي دافع عنها محمد أركون في مؤلفه هذا هي تلك التي تؤكد على أن النزعة الإنسانية تجسدت في تاريخنا العربي الإسلامي في اللحظة الكلاسيكية (العصر الذهبي)، الذي يمتد طيلة القرون الستة الأولى من زمن الحضارة الإسلامية، وسيكون حدث موت ابن رشد، بالنسبة لمحمد أركون، بداية لنهاية الفلسفة في الأندلس، وسيترتب عن هذا الحدث سقوط أو انحطاط الفكر العربي الإسلامي من حيث هو تمثيل لكل فكر رافض للاختلاف والتعددية والتسامح والانفتاح على الثقافات الأخرى والتفاعل معها بالتالي.

---

[5]-محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، مركز الانماء القومي بيروت والمركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط3، 1998، ص:20

[6]- محمد أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية، مرجع سابق، ص" 32

[7]-محمد أركون، نحو تاريخ مقارن للأديان، دار الساقي بيروت، ط1، 2011، ص: 320

المجلد : 06/ العدد : 01 / الشهر: يناير/السنة: 2019 Issn: 2335- 1470

فإذا كانت العصور الأولى للحضارة الإسلامية تحتوي في جانب منها رفضا لفكر الآخر والذي تمثل في هذه اللحظة في الفكر اليوناني (الأفلاطوني والأرسطوطاليسي) فإن هذا العصر يرفض أيضا فكر الآخر المتمثل في فكر التنوير الأوروبي الديكارتي والكانطي والهيغلي أو حتى الفكر الما بعد حداثي.

الخاتمة:

ضمن هذا المنظور، يطلب محمد أركون الشروع في البحث عن التراث الإسلامي الكلي وإعادة النظر فيه، إذ أن التوصل إلى التراث الكلي أو السنة الكلية الشاملة يتطلب أولا الخروج من الفكر الذي يعتقد في وجود إسلام واحد صحيح ومستقيم وبالتالي رفض كل ماعداه، هذه النظرة التيولوجية براها محمد اركون عائقا ظل مسيطرا على الفكر العربي الإسلامي طيلة قرون عديدة ولاتزال.

ظل التراث الإسلامي، في مساره التاريخي وهذا بداية من موت ابن رشد عام 1194 (لحظة نهاية الفلسفة)، متشبثا بموقعه وباعتقاده في المحافظة على تميزه وبانغلاقه على ذاته في دائرة دوغمائية، وهو بذلك يكون قد حرم نفسه من الانفتاح على مكاسب الحداثة.

إن الفكر العربي الإسلامي قد مر بفترات إبداعية لم ينتبه إليها الفكر العربي الإسلامي أو لنقل لم يفكر فيها، فقد عرف تاريخ الإسلام مرحلة إنسية مهمة ومضيئة وقد بلغت أوجها في القرن الرابع الهجري ولهذا نجد محمد أركون يعود في كل مرة إلى عصر التوحيدي وابن مسكويه ليبين أهمية هذا العصر الذهبي .

وإذا كانت بداية هذا التراث (فترة العصر الذهبي) قد فتحت أبواب الانفتاح على المعتزلة والفلاسفة الكبار وبعض علماء الدين والأدب إلا أن هذا التراث سرعان ما انقلب إلى تراث رافض لكل انفتاح بسبب هيمنة وسيطرت الفقهاء والذي ظل يتحرك فقط في فلك المذاهب و بذلك يرى محمد أركون نهاية حقيقية للفكر الفلسفي المبدع لصالح ترسيخ فكر دوغمائي منغلق على ذاته.

إن ما يدعو إلى الشعور بالخطر اليوم، في مجتمعاتنا العربية الإسلامية، هو عدم وجود باحثين محترفين مؤهلين علميا قادرين على الاستفادة من المناهج العلمية الحديثة لتطبيقها على أي قراءة للتراث الإسلامي وعلى واقع مجتمعاتنا، إننا بأمس الحاجة اليوم إلى تفكيك أنظمة الفكر اللاهوتية الموروثة عن الماضي وإعادة بناء فكر عربي إسلامي يقوم على أصول إنسانية.